الملامح العلمية والأدبية بوادي ريغ

أ.عبد الحميد إبراهيم قادري

تمهيد :

قبل أن نتطرق إلى سرد وذكر بعض أعلام العلم والأدب بمنطقة وادي ريغ، ولحديث عن الملامح العلمية و السيمات الأدبية التي تميزهم، و قبل أن نقدم بعض النماذج النصية لأدبهم وعلمهم، يتحتم علينا أن نسجل بعض الملاحظات التي ربما تساعدنا على رصد تلك السيمات وتبرير مستوى الإبداع الأدبي والفني، وربما ستكون مدعاة إلى بحوث جامعية تحدد لنا بصفة علمية تلك الأسباب التي جعلت المنطقة يقل فيها التأليف العلمي و الانتاج الأدبي مقارنة، بما نلمسه في إقليم توات و إقليم الزيبان.

الملاحظة الأولى: إن الحركة العلمية لا تنتعش ولا تتطور إلا بجوار مراكز علمية تربي وتعلم وتكوِّن العلماء و الأدباء مثل الجوامع بين ظفرين والزوايا، على غرار جامع سيدي عقبة وجامع الزيتونة بتونس و جامع القرويين بفاس والزاوية العثمانية بطولقة و الزاوية المختارية بأولاد جلال الزاوية القاسمية بالهامل، وزاوية عبد الرحمن الأيلولي بجبال جرجرة ،فمثل هذه المراكز مفتقدة بإقليم وادي ريغ وإذا وجدت بعض الزوايا فهي للإطعام و الإيواء ، وتأطير الذكر، و تحفيظ القرآن في بعضها ،فالزاوية الوحيدة العلمية التي كانت مركزا علميا، هي الزاوية الهاشمية و كان تركيزها على تحفيظ القرآن وتلقين بالمبادئ الفقهية، وقد جاءت متأخرة.

الملاحظة الثانية: إن غرس العلم و توريثه يحتاج إلى رباط و اعتكاف بنية التوريث وتكوين علماء يخلفون أساتذتهم و مشايخهم و هذا مالم يحدث بوادي ريغ، فلم نرى عالما ورَّث علمه بالصورة التي رأيناها في بلاد توات وغيرها من المناطق، لأن التوريث يتطلب الاستقرار والاستمرار وعدم الانقطاع ، و العلماء الذين علموا بوادي ريغ أغلبهم جاؤوا زائرين، وإذا طال بهم المقام فلا تتجاوز إقامتهم بين مُريديهم و تلاميذِهم فصلي الخريف و الشتاء ، ثم يرحلون هروبا من المناخ ، و إذا عادوا إلى محاضرهم و حلقاتهم في العام القابل ،بدأوا دروسهم من حيث بدأوها في العام الماضي، و بهذه الطريقة لا يتجاوز حجم تعليمهم فقه العبادات لتلاميذهم الأذكياء[1].

و لذلك فمن كان لهم نصيب من التفوق في العلم و الأدب من أبناء هذا الإقليم، فهم ممن هاجر و طلبوا العلم في المراكز العلمية خارج الإقليم كما عرفنا ذلك عن الشيخ أحمد البسطامي الذي طلب العلم بجامع القرويين بفاس، والشيخ عبد المجيد ين حبة الذي أخذه في جامع سيدي عقبة، و الشيخ الحشاني بالعمري ومحمد بالمبروك و محمد بن سليمان و محمد اللقاني و محمد الأخضر محجوبي و الأخضر السايحي وغيرهم ممن رحلوا إلى تونس و تعلموا بجامع الزيتونة.

الملاحظة الثالثة: إن المنطقة هي منطقة إقتصادية و محل لطلب الرزق و الثروة، وكل من يأتيها، يأتيها بنية طلب الرزق والكسب ، ومن كان هذا دأبه فإذا كان جاهلا فلا يجد الوقت للتعلم و إن كان عالما، فإن لم يجد مركزا علميا يحتضنه ويوظفه و لم يجد من يضمن له العيش الكريم ، يسعى لطلب العيش، فلا يترك له السعي التفرغ لنشر العلم وتوريثه.

الملاحظة الرابعة: من المعلوم بمكان أن الأدب و العلم وليدا الاستقرار و الأمن ومنطقة وادي ريغ لما لها من أهمية إقتصادية، فقدكانت مسرحا للقلاقل والفتن، فمن فتنة بني ابن غانية المسوفي الذي جلب على المنطقة ، مرورا بثورة صاحب الحمار وثورة الشيخ سعادة، فحملات البايلك على الإقليم إلى حضور الاستعمار الفرنسي الذي عزل

---

[1] – الشيخ عبد المجيد بن حبة السلمي.

الإقليم عزلة ثقافية قاتلة وأدخل الجميع في دائرة الفقر والجهل ، و جعلهم يلهثون وراء لقمة العيش في مزارع المعمرين ومراعيهم.

بهذه الفتن عاش الإقليم في فزع وهلع و معاناة ماتت معها المواهب العلمية وتبلدت الأذهان وكلت العقول عن الابتكار ،لأن ازدهار العلم والترف الثقافي والإبداع الفكري ؛من فلسفة وآداب تكون نتيجة الاستقرار والأمن ، والمنطقة لم تعرف الاستقرار منذ سقوط الدولة الرستمية، إلى الكارثة الاستعمارية.

هذه العوائق مجتمعة، ربما ساهمت في الركود العلمي ، وأعاقت تكوين حركة علمية ، ونهضة ثقافية وأدبية متميزة .

1- **بعض الملامح العلمية و الأدبية:** من الملامح العلمية السيمات الأدبية التي تميَّز بها أعلام المنطقة، هي ملمح النقل وإعادة ما تعلموه في مرحلة الدراسة، وربما إعادة صياغته ليسهل عليهم نقله إلى تلاميذهم و مريديهم، حفاظا على وحدة المنهج العقدي و الفقهي، فهم في مرحلة متقدمة إباضيون وصفريون في فقهم، إعتزاليون في عقائدهم و جمهوريون في في إمامتهم ، و في المراحل المتأخرة فهم مالكيون قاسميون في فقههم وسنيون أشعريون في عقائدهم وبصريون في نحوهم و وخليليون في شعرهم و دينيون أخلاقيون في مضامين أدبهم .

ولذلك نراهم يركزون في تعليمهم على القواعد الأساسية التي تحافظ على سلامة التلاوة والحفظ الجيد للقرآن[1] ، والنأي بتلاميذهم عن اللحن في قراءة الأحاديث النبوية مع تحفيظ المتون العلمية ، و بهذه الصورة فهم علماء رواية لاعلماء دراية وعلماء نقل لا علماء عقل، ولم يكونوا بدعا عن زملائهم في جميع المناطق الأخرى، فكان أدبهم وعلمهم نسخة من علم وأدب عصر التوقف ولم يتخلصوا من أسر القوالب الجاهزة و المضامين المستنسخة إلا مع جيل الثلاثينات الذين تعلموا في الجامعات كما نلمس ذلك في أدب وفكر الأزهري بن ثابت و البشير برابح و إسماعيل برابح و محمد الأخضر بن عبد القادر السايحي و محمد الصالح باوية الذي تمرد على القصيدة العميدية في كثير من شعره والتلي بن الشيخ و علي كافي ومحمد الصغير الأخضري وغيرهم .

2- **جذور الملامح العلمية و الأدبية:**

بعد هذه الملاحظات ننتقل إلى صلب الموضوع ، و نحن مطمئنين أن ما سنقدمه نقدمه في سياقه التاريخي و في ظروفه الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية ، وفي هذا الإطار نقول أن هذه الحركة لم تظهر أثارها الدالة عليها دلالة واضحة، أو تكشف عن خصوصياتها ، لعدم تدوينها وتوثيقها، ومع هذا فإنَّ ملامحها جلية و واضحة ، باعتبار أن الثقافة الإقليمية هي جزء من الثقافة العربية الإسلامية عامة ،والثقافة الجزائرية خاصة.

وأزهى فترة علمية عرفتها هذه المنطقة هي الفترة التي ساد فيها المذهب الإباضي، الذي انتشر و تقوى في ظل الدولة الرستمية، ومن نهج نهجهم من بعدهم، ففي هذه الفترة التي امتدت من القرن الثاني إلى القرن الثامن، نبغ فيهم ، علماء يشهد لهم بالعلم والفتوى ، منهم : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر[2] المولود عام 340 هـ بتنسلي "ببلدة عمر" أو تالة عمر، وقد تنقل هذا العالم في عدد من البلدان لطلب العلم ،من أفواه عدد كبير من شيوخ العلم الفحولوقد استقر في قبيلة مغراوة ريغ بوغلانة[3]، فقال فيهم قولته المشهورة :"ها هنا أناس رقاق القلوب ، أرجو أن ينتجع فيهم الإسلام

---

[1] – العياشي الرحلة ماء الموائد

[2] – **بعض المؤرخين ومنهم يوسف سليمان بن داوود، يقولون أن محمد بن بكر هو نفسه سيدي محمد السايح جد أولاد السايح ، وذلك لتشابه الاسم و وحدة المكان ،و صفة السياحة.**

[3] – **الدكتور خليفة النامي محاضرة ألقاها في ملتقى الفكر الإسلامي بورقلة عام 1977.**

،ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول،ويكونون لهذا الخير أهلا "[1] ويقصد بالذي هو عليه هو "المذهب الإباضي" وهو الذي عقد الحلقة بوغلانة لأول مرة ، وأرسى قواعدها وأقام نظام العزابة المعمول به في وادي ميزاب إلى يومنا هذا ،وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء الأجلاء الكبار، منهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ، المتوفى عام 471 هـ وابنه أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى 504هـ صاحب الكتاب النادر " القسمة وأصول الأرضين" الذي حققه الشيخ بكير بن بابا والدكتور محمد ناصر، في طبعة قشيبة ومن يريد أن يعرف طبيعة النظام الزراعي، والتخطيط المعماري لمنطقة وادي ريغ فليعد لهذا الكتاب وما فيه من فتاوى تتعلق بالعرف الفلاحي والتخطيط العمراني، الذي استمر العمل به زمانا.

ومنهم أبو محمد ماكسن بن بكر،وعبد الرحمان بن معلى الذي أسس الحلقة بمسجد تقرت،ومنهم أبو نوح يوسف،وابنه زكريا الذي انتقل مع بعض أهله وذويه من تنسلي إلى توغلانت[2]،فاستقبلهم أهلها بالترحاب،وبوءوهم مكانة عالية في نفوسهم، وأقطعوهم أنواعا من الأملاك من دور للسكن وبساتين النخيل،إجلالا واحتراما لعلمه,وهذه ميزة من ميزات سكان وادي ريغ يجلون العلماء ، إلى درجة أن يكونوا لهم عبيدا،يقدمون لهم الهبات والهدايا ويخدمونهم توقيرا لعلمهم.ومن أعماله الجليلة أنه قام بالحسبة والعدل والإصلاح ،فحارب قطاع الطرق الذين روعوا أمن المسافرين المسالمين،و أبطل الحرابة التي كانت تقع بين وغلانة وتمرنة.

وبعد هذه المرحلة التي برز فيها السادة الإباضية لم نعثر على نصوص علمية ولا أدبية مخطوطة سوى ما عرفناه عن المجهودات التي بذلت من أجل الحفاظ على القرآن الكريم ،تلاوة واستظهارا فقد انتشرت الكتاتيب القرآنية ، وتعددت المساجد التي تقدم دروسا في المبادئ الفقهية و العلمية وربما ما نقله لنا العياشي في رحلته عن متفقهة تقرت يؤكد لنا هده الظاهرة العلمية ..

وفي القرون المتأخرة وبعد عودة و الوعي واليقظة في مطلع القرن العشرين أدرك العلماء خطورة ما آل إليه الوضع من الجهل، فوجهوا جهودهم إلى تعليم النشء ،وإيقاظ الضمائر وإصلاح المجتمع ، لإعادته إلى الروح الإسلامية الصحيحة ،التي أفسدها الدهر، ولوثتها يد الاستعمار؛ هذا العمل الدؤوب والاشتغال بالتعليم لم يترك للعلماء الوقت للتأليف و التدوين، وإذا وجدت فلم تصل إلينا.

ومع ذلك فقد طرق بعض الأعلام قول الشعر و تأليف المنظومات العلمية، التي تسهل على الطالب حفظ ما يتعلمه ، لأن الشعر العلمي كان ظاهرة بيداغوجية شائعة، يتكئ عليها المربون والمعلمون في تلك الفترة، إلا إن ما ألفه أو قاله وأنتجه بعضهم، لم يصل إلينا مدونا ومنسوخا كما هي عادة أسلافهم من العلماء في مناطق أخرى فقد أصاب انتاجهم – بذلك – الضياع والإهمال ولم تستفد منه الأجيال اللاحقة، بالإضافة إلى الطابع الشفوي الذي تميز به الإنتاج في أغلبه ، وإذا كان هناك بعض النتف النثرية المكتوبة اقتصرت على الرسائل والخطب وبعض المقطوعات الشعرية لم ترق إلى المستوى الفني إلا القليل منها.

ومن الأعلام الذين كان لهم حضور علمي وأدبي الشيخ أحمد بوبكري كان فقيها ومحققا ومحبا للعلم و العلماء ،و الطالب أحمد الزكيزكي وقد كان عالما وأديبا ومتصوفا وورعا، وقاضيا عادلا محبا للعلم وأهله خصص دارا لنزول العلماء الذين يزورون تماسين تسمى دار لالة مامة، ومنهم الشيخ التجاني محمد الصغير الذي امتاز بسمة العلماء من تواضع و بساطة ودماثة أخلاق، وكان يدرس الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف في مكان ضريح الشيخ

---

[1] – أبو العباس الدرجيني كتاب الطبقات تحقيق وتقديم محمد طلاي لجزء الثاني ط/البعث1972. ص/509ا

[2] – أبو العباس الدرجيني المصدر نفسه.

سيدي علي التماسيني، ومنهم الشيخ محمد السايح الذي عرف برقة شاعريته فكان شعره على غـرار البحتـري وابـن زيدون, وهو مع ذلك ناثرا على غرار الجاحظ وابن قتيبة[1] حسب ما وصفه صاحب الصروف.

و من الأعلام الذين تركوا بصماتٍ تنم عن حس أدبي جيد وفكر نير أصيل، الشيخ الطاهر العبيدي والطالب أحمد بن عظامو و الشيخ أحمد البسطامي الرحماني والشيخ علي خليل و الشيخ محمد اللقاني والشـيخ عبـد المجيـد حبـة والشيخ إبراهيم قادري و الشيخ محمد بن سليمان حمداوي و الشيخ التجاني حقي، ومحمد الصغير بحة مـن الأولـين ، والأزهري ثابت وعلي كافي وبرابح البشير وبرابح إسماعيل ومحمد بن عبد القادر السايحي و التلي بن الشيخ ومحمد الصالح باوية ومحمد الصغير الأخضري وغيرهم كثير.

3- نماذج من الملاح الأدبية:

ففي ميدان التأليف والأدب نذكر الشيخ الطاهر العبيدي الذي كان علما على تقرت، اعتكف فيها يـدرس ويعلـم أكثر من خمسين سنة، وقد ألف عدة رسائل فقهية معتبرة جديرة بالدراسة والشرح ،كرسالة الحـيض والنفاس،ورسـالة التيمم في أحكامه وأسبابه ورسالة العدة في أحكام المعتدة، ورسالة تنويل الصلات في تطويل الصلاة، و رسـالة رفـع الإبهام عن مسائل الصيام، وكل هذه الرسائل رجزية، ووالنصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصـوفية، ونصـيحة الشباب المزيحة للسحب والضباب،و رسالة في مناسك الحج والعمرة وألفية جريان المدد والاعتصام بالسـند و رسـالة انكفاف الدمعة لانكشاف مسألة الجمعة، ونظم رسالة العوامل في النحو، ورسالة القطب الدردير في البيان بأسهل بيان، و له نظم صغير في الجبر و الاختيار فضلا عن تفسيره للقرآن الكريم، هذا التفسير الذي لو وجد العنايـة و الاهتمـام لجُمِع في كتاب وطبع، وقد ذكره الأستاذ اسكندر من بين العلماء المفسرين، في كتابه معجم المفسرين الجزائريين.

ففي منظومة "النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية" يقول الشيخ الطاهر:

إن تـرد عزة ومجدا مـزية فتلق الطريقة العزوزيـة
فتلق أورادهـاوتـبرك بحماها ففي الرجال بقيـة
كم توالت لأهلها رحمـات فهي حقـا و الله رحمـانية

ويواصل يقول:

فاحفظوا عهدها ولا تهملوا الذكـر صباحا بحلقة وعشيـة
ولتراعوا قواعد الشرع دومـا وتحلوا في الأولياء حسن نية
وأحبوا أهل انتساب فمن يحـبب فريقا يلحق بهم في القضية
واذكروا باللسان والقلب حتى تذكروه بلهجة صـدرية

ويواصل يقول:

هل يكون الأخير أهدى من الأول والسابقون حازوا المزيـة
أو يكون الأقل أهل اعتبـار وهو ذو الجهل الخلال البذية
قد نرى أكثر الأئمة والأمـة والاعتقـاد فيهم سجية
وعلى الأولياء نثني ألوف الكتـب إلا جماعة تيميـة

ثم يدخل في نقد الجماعة الذين ينكرون التصوف، فيدعو الناس للابتعاد عنهم وعدم الأخذ بأقوالهم فيقول:

قد عجبنا من فرقة سفروا في طلب العلـم من بلاد قصيـة
بعضهم فاء بالحصـول على نزر وبعضهم ما فاء بالأمنيـة

---

[1] – إبراهيم بن محمد الساسي العوامري الصروف

ثم آبو إلينا وقد ملئـــوا كبـــرا ومن أوليـــائنا سخـــرية
فأثاروا في الناس كـــل شقاق وادعوا في العلم أشيا فـــرية
كل يدعي اجتهادا و لا ترضيـــــه إلا مجلـــة شرقيـــــة
ويحطون من خليل و شراح عليه و كتبنـــــا الأوليـــــة
ويرون أن الســـواد من الأمة في باطل و أدهى بليـــــة
وعجبنا لهم إذا بصروا قـــوما على الذكر مع صفاء الطوية
ساءهم ما رأوه من ذكر مولانا تعال له النعوت السنيـــــة
وإذا بصـــروا مجالس لهـــو باسطوهم و وازروا في الرزية
إن هذا النفاق الذي يفضـــــــــي إلى شقـــوة بهم سرمديـــة
ما لهم في العلوم من قـــدم إلا احتجاجا من صحفنا العصرية
ناظروهم إن شئتم في أصـــول أو فروع أو جملة نحويـــــة
هذه فرقـــة أضلت وضلت شفيت من أهوائها النفسيـــة
قد قضى ربنا فريق سعيـــد وفريق ذو شقوة أزليـــــة
أيها المؤمنـــون إن فعال القوم تنبي عما لهم من دنيـــــة
فانظروهم لدى النوادي حضور و بيوت الإلـــه منه خليـــة
و يقومون للصلاة كســـالى نـــاشطين لوصل كل فتية
بعضهم يتـــرك الصلاة وبعضٌ لا يبالي إن أخَّر الوقتيـــــة
لا ترى عندهم كتابا ولا سبحـــة إلا جريدة أو عصيـــــة
مع دروس مشحونة بسبـــاب فتنبه أهل الذكا للبقيـــة

وفي قصيدة أخرى تربوية "نصيحة الشباب" المزيحة للسحب والضباب، التى أصبحت دســتورا لطــلاب العلــم، ومقررة في الحلقات العلمية بالزوايا و المساجد يقول فيها:

الحمد لله الذي قد فرضـــا فرائضا ادوية روائـــــضا
أعظمها فريضة النصيحـــة قد وردت أخبارها صحيحة

وبعد الاستهلال يمضي في تعظيم العلم وضرورته للإنسان يقول:

فإنما الدين أســـاس الارتقـــا و من يـــرقق دينه فما ارتقى
والدين جسم روحه بالعلـــم كالروح في قالب هذا الجسم
بالعلم تدري و اجبـــات الله و الواجبـــات لعباد الله
فالعالم النحرير يسعى نـــوره بين يديه كـــاملا شعوره
والجاهل المسكين كالأنعـــام أو كالنَّعَام عن هداه عامي
وفي الصحيح العلم بالتعلـــم فريضة في عنق كل مسلم
فكل من لايعشق الدروســـا فلا يكون قائـــدا رئيسا
عار عليك ياشباب أن تكون من الذين للصلاة يتركون
فإنمـــا الصـــلاة رأس الدين والدين رأس الملك والتمدين

ويمضي في وصيته الثمينة قائلا:

يا راضعا أبازم الدخـــــان مبذر الأموال في الخســـران

أخطأت فيما تنتحيه جـــدا و قد أتيت اليـــوم شيئا إدًّا
إن الـــدخان منتن وسرف و ضرر في الجســم يا مثقف
تجذب نيرانا إليك مــوقدة ترشفها في عمد ممـــــدد

ومنها

يا ساهرا بليلة في القهـــوات وراقدا في نومه للضحـــوات
ماهكذا والله شأن المؤمنـــين بل ذاك وصف الكافرين الغافلين
فالمؤمن الحـــازم قــوَّام إلى صلاته في وقتهـــا مبتهـــلا
إذِ الصلاة صحـــة وبـــركات تنهى عن الفحشاءوكل المنكرات
وفي الحديث إن ترك الصلوات كفر فمـــا أعظمها من حسرات

ومن أساطين العلم والأدب الذين أنتجتهم المنطقة العالم العارف الشيخ اللقاني السائحي الذي ترك ديوان شعر .
فمن جيد شعره هذه القصيدة التي يتحسر فيها على ما آل إليه الشعب الجزائري من تخلف وجهل وفقر فيقول[1]:

بني الجزائر هذا الموت يكفينـــا لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا
بني الجزائ هذا اللهو أوقعنـــا في سوء مهلكة عمت نواديـــنا
بني الجزائر هذا الفقـــر أفقدنا كل اللذات حينا يقتـــفي حينا
بني الجزائرما هذا التقاطع من دون البرايا...عيوب جمعت فينا
بني الجزائر ما هذا التقاطع من دون البرايا عيوب جمعت فينا
فقر وجهل وألام ومسغبـــة يا رب رحماك هذا القدر يكفينا
حياتنا قط لا يرضى بها أحـــد وعيشنا ضار زقوما وغسليـــنا
الناس في الجو طاروا و حلقوا ونحن نحسبهم جهلا شياطيـــنا
يا أمة ضيعت مجدا لها سلفـــا طال النداء بنا لو كان يجديـــنا
يا دهر رفقا بأغنام مقطعـــة عثى بمربعنا سيـــــد ليبليـــنا

ويوجه رسالة إلى شعبه في الجزائر فيطرح جملة من أسئلة الترجي والتوبيخ و الاستنكار لتحريك همـــم العلمـــاء والمثقفين ليبعث فيهم روح العمل و ترك السكون والخمول، والرجوع بالأمة إلى ماضيها التليد وتاريخها المجيد لتلتحق بركب الأمم فيقول[2]:

بني وطني هل من نزوع لأحـــــداد لقد ركبوا للعلم كـــل منطـــــاد؟
بني وطني هل من نفـــــوس شريفة تغار على الأوطان غيرة آســـــاد؟
بني وطني هل من عقـــــول كبيرة يقوم أمام الظلم وقفة أطـــــــواد؟
بني وطني هل من شيـــــوخ أجلة عدوا في سماء العـــز كعبة قصـــاد؟
يذودون عن حـــوض شريعة كلما أناط بها الأعـــــداء شبهة حســـاد
بني وطنيهل من خطيب مـــدرب يحرك أرواحـــا بمقـــولة الصـــادي؟
بني وطني هل من حكيم مجـــرب تعلق من بحر السياسة في كل واد؟
شق عن الأرواح ثـــوب رذيلـــة و يلبسها بالعلـــــم حلة إرشـــــاد

---

[1] – سعد الله دراسات في الشعر الجزائري ص/ 34دار الملايين بيروت 1966

[2] – **الهادي السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر**

يطالب حقا ضاع منذ ضاع أهله و ينشر في الأبنـــاء تاريخ أجـــداد
ألا ليت شعري و الحوادث جمـــة لماذا أرى في الشعب عـــلو أضداد؟
علام أرى أرض الجـــزائر أصبحت بها تضرب الأمثال للرائح و الغادي؟
ألم يكفهم ما حل بالشرق منذ غدا يقـــدم ذو الأعلام عن ناطق الضاد؟

وفي قصيدة أخرى حشد فيها ألفاظا رقيقة، تتوافق مع الغزل لكنها، تنافرت ولم تنسجم مع البحر، لأن شاعرا، لـــم يصدر عن غزل عبثي ليشبع نزواته ويتمتع بالأوصاف الجسدية ،وإنما عبر به عن أمر أوسع، وأرحب هو حب بلاده الجزائر التي يضمحل أمامها، جمال الغيد الحسان، وعيون المها، وقوام الغزلان فيقول في قصيدة عنوانها:

يـــا بـــلادي[1]

أنا أهواك ومثلي في الهـــوى لايبـــالي صار جسمي من تباريح الجوى كالخلال
أنا لا أهوى غزالا أو حورا أو مهـــاة لاولا الغيد الحسان،البارعات في الصفات
أنا لا أهوى نجوما نيرات سابحـــات كل همي أن أرى مالكتي في كمـــــــال
إن شككت في صحيح خبري فابتليني حميليني ثقل أعبـــــــاء الجوى حميليني
إذ به من بين عشاق العلا تعـــرفيني ثم إن شئت حياتي بعد ذا فـــــارجميني
قد رمى نبل جفاك كبدي بالكـــلام هو و الله أشـــــد مضضا من سهـــام
إن مضى عصر قطعت جله في منام فابشري قد سرت شوطاشاسعا في المعالي

و في قصيدة أخرى يفتخر بقومه العرب ويعدد المزايا التي تجعله قويا صامدا في وجه الصعاب فيتمثل نفسه حرا شجاعا عالما تقيا فصيحا فيقول:

ما الليالي تريد قتل فضائـــــلي و تـــود نهك تصبري وجلادي
و تـــــروم محق مواهبي و شمائلي تأبى الخضوع لصمـــام و زناد
قد غرها حلمي و سالف سؤددي وتربصي من حكمـــة وســـداد
فعادت تحاول ما تظـــن جهـــالة من أن تكسر ثورتي و عنـــادي
أوَ ما تـــرى يا دهر أن لا أرى غيري على وجه البسيطـــة ناد؟
فالكفردون تضـــــرعي و تذللي و الـــموت دون سماتة الأوغاد
أن ذلك الشهم الأبي ومـــن له عند المكـــــاره صولة الأساد
أنا ذلك الحر المدلل في الـــوغى كل الصعـــاب بتكبره الوقـــاد
إن هي يوما باليـــــــراع حميته ومحـــــا بياض طروسه ســـواد
فإذا دعـــــا فالناس حول ندائه و على الجميـــــع سكينة العباد
يعطيك من سحبـــان سحر بيانه و يريك قســـا بالمقـــال صـــاد
فتخـــال أنك في عكاظ وأنـــه بطل الرهان و كعبة القصـــاد

ومنهم الشيخ عبد المجيد بن حبة الذي ترك شعرا جزلا يدل على حس شعري راق، وثقافة أدبية عاليـــة، فمـــن إنتاجه أرجوزة في نسبه مع شرحها سماه: " تحصيل الرغبة في رفع النسبة " من أبياتها

ضمنت هذا الرجز انتسابي للعرب الكريمة الأحساب
فمن سليم نسبي ممـــــــتد و قيس عيلان لهذا جـــد

---

[1] -- **الهادي السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر**

حفيده أحمد قريب النسبـــة محمدعيسى و يدعى حبة
واشتهرت أسرتنا بذا اللقب به دعانا من نأى ومن قرب.

بالإضافة إلى عدد من القصائد الشعرية في الاخوانيات والرثاء ،فمن شعره هذه الأبيات التي قالهـــا عـــام 1940 يصف سوق تكوت وحركة الباعة ويتأسف على استهانة الناس بالعلم والعلماء و الزهد في الإنفاق عليه فيقول .

سوق حكت ما مضى في سالف الحقب. فبينها وبين عـــــكاظ أقرب النسب
كل مباع بها يسمى مبيعا فمـــــــا ترى كسادا لغيـــر العلـــم والأدب
وذاك أن عكاظا حـــــوى عـــربـــا بدون عجم وذي عجم بـــلا عـــرب
فعربـــها استعجموا و مـــا بربرهـــا من همة أن تقيـــــم المنطق العربي
أليس قحطان من مازيغ كـــان أخـــا وحماهمـــــا حضـــــن أم بـــرة,وأب
إنما المجد شيء حاز معظمـــــــــه عـــــرب وبر بر قدما دونـــما كذب

عندما زار العالم الأصولي عبد الحي الكتاني ،مدينة سيدي عقبة ،وكان في استقباله جمع من العلماء من بيـــنهم المترجم له ، فأحب أن يسجل هذه الحادثة ، وينوه بالرجل، وينصفه في علمه ، بالرغم من مواقفه السياسية ، التي كانت تتعارض مع النضال الفكري والإصلاحي بالجناح المغربي ، فقال فيه مرتجلا هذه الأبيات:

أكـــرم بهذا السيد الربـــــاني *** شيخ العلوم العارف الكتانـــي
ينسيك قسا إن تكلم خاطبـــا *** وإذا روى تتذكر الشيبـــــاني
يا طالما منيت نفسك درســـه *** ها هو حيث تناله العينـــــان
فانثر علينا من حديثك جوهرا *** أولا ،فآيات من القـــــــرآن

وفي مرثية طويلة، بكى بها رجل الإصلاح بالمغير، صديقه وصفيه الشيخ الأخضر بن ثابت يقول فيها مودعا:

ألفنا الأحداث لما تـــــــواترت *** علينا فلن نجزع و لم نتضجـــر
ولكن هذا الرزء أفضع وقعـــــة *** فأحشاؤنا من وقعه في تسعـــر
فأعضل به من حادث كاد خطبه *** يعف على أرزاء جملة أعصـــر
غداة نعى الناعون من كان للندى *** وللعلم و الإرشاد أقرب مصدر
هما له في الصالحات سوابـــــق *** وفي بيته الإصلاح أربح متجـــر
أياديه للعارفين بيض كوجهـــه *** ومن عجب أن راح يدع بأخضر
لقد كان ثبتا راسخ الدين حجـــة *** يسمو المعالي الغاليات فيشتري
عزيـــز علينا نعيه يوم موتـــــــه *** فما أهله عن ذاك منا بأجـــدر

وقد كان له مساجلات ومطايبات بينه وبين بعض العلماء من جيله ، وهذه مساجلة بينه وبين الشيخ شريط الزريبي حول العقيدة ، أيها أصح وأحق بالمتابعة؟ مذهب السلف، أو مذهب الخلف؟ فانتصر الشيخ عبد المجيد للسلف فرد عليه الشيخ عبد المجيد بهذه الأبيات من نفس البحر وبنفس القافية والروي قائلا :

أتى تأسيسكم يحوي فصـــولا *** ذكرتم أنها أهدى سبيـــــــلا
لعمرك مالفخر من فخـــــــار *** فندعوه به الشيخ الجليـــــلا
ألم يـــــك نسخـــة لأبي علي *** يذيع ضلالا قالا وقيـــــــلا
متى كانت أثينا أو كريـــــــد *** واهلهما ينيرون العقـــــــولا
وكيف علومهم تهدي لـــدين *** وقدما شيخهم رفض الرسولا
عجبت لمرتج بقـــــراط أن *** يقم له على المولى دليـــلا

و لم يقنع بإيمان الأولى قـــد *** أبن الشرع فضلهم الجزيلا
أرينك صحب أحمد على أفادوا *** علوم كريد أم ضلوا السبيلا
يمينا لو دروا منها فتيـــــلا *** لا كانوا علموا جيلا فجيلا
فحسب أولها إيمان صحب به *** في ا لخلق قد نعموا نزولا
وكم من دارس كالفخر كتبا *** بها بحث العناصر و الهيولا
ولـــم يذهب إلى مقال فخر *** فمن ذا أولى منهما قبولا
فـــرد يا شيخ النقل و احذر *** علوم الشحم بئس همو قبيلا
نصحتك فاستمع يا شيخ نصحي*** وعض على ناجذك الطويلا

ومن الذين كان لهم باع في رجز الشعر الشيخ الطاهر شوشان الجريدي لكن مع الأسف ضاع إنتاجه ولم يبـــق إلا المروي عنه والمروي ضاع مع موت رواته، فلم نعثر إلا على رجز طويل دافع فيه عن أهل السنة والجماعة منه هذه الأبيات:

وعندنا إن الأئمة أربعـــــــة وغيرهم من ادَّعى مبتدِعة
فمالك إمامنا و التابعـــــــي و الحنبلي أحمد و الشافعي
و الحنفي منهم بلا نـــــزاعِ قد ثبتوا بالحق و الإجماع
و غيرها فباطل لا يقبـــــل ومن زاد قلنا حقٌّ يُقتــلُ
ثم استمع لأعظـــم الدواهي بنفيهم لرؤيـــة الإلـــــه
وسلكوا طريقا ذي اعوجاج وخوضهم في ليلة المعراج
ما قولكم في سورة سبحان أ هـــذا حـــق أم بهتان ؟
أمـــا ارتقى للملكوت الأسمى مـــن قاب قوسين أوَ اَدنى
غرتهم النفس مع الأهـــــواء وحادوا عن طريق الاستواء

ومن الأعلام الشيخ محمد بن سليمان حمداوي الذي ترك مدونات علمية في اللغة والفقه ، قـــد اشـــتغل بـــالوعظ والإرشاد ، والتدريس والتوجيه والدعوة، وتصحيح عقائد العامة قبل الخاصة وهذه عادة كل العلماء الذين عاشوا في هذه الديار ، فلم يخلف لنا انتاجا يمكننا من معرفة ملامحه العلمية ، ومستواه الفكري ، ومع هذا فله مدونات علمية في اللغة والفقه وبعض القصائد الشعرية منها أرجوزة في نسبه .منها هذه الأبيات :

فمن سليلها محمد ابن سليمان ابن أحمد الزكي ابن المداني
نجل محمد الولي الصـــــالح والده محمد ابن السايـــــح
ابن محمد الكبير ابن محمد بالسائحي يدعى نجل أحمد

و له بعض القصائد الشعرية لم نعثر عليها.

ومن الشعراء الوكيل الشرعي التجاني حقي ،الذي قال العديد من القصائد الشعرية في المناسبات،وله كتـــاب مخطوط في التاريخ المحلي تحدث فيه عن واحة تقرت وضواحيها.

ومنهم الأعلام النابهين محمد الصغير بحة التماسيني الذي عانق نظم الشعر الوطني الذي يحفز النفوس ويـــدعو الشباب إلى طلب العلا ومن شعره هذه الأبيات التي قالها في بداية الأربعينات رواها لنا الطالب علـــي بـــوخزة أحـــد تلاميذته الأوفياء:

يا شباب الجـــزائر أنت خير الـــذخائر

حيث مـــا أنت سائر تـــحي عهد الجدود
يا شباب العـــــرب أقبلـــــــن للأدب
للمـــــنى و الطلب والمقام السعيـــــد
هذا عصـــر الجمال و العلا و الجـــلال
قل كما الله قـــــال فيه هـــل من مزيد
لا تكن في الثـــرى يا شبـــــاباً درى
إن خيـــر الـــورى من يُرى في صعود

وفي قصيدة أخرى يقول:

ياليلة الأنس عـــــودي بما يسر فـــــؤادي
يبدو نجـــــم صعودي على سمـــاء بلادي

ومن الأعلام الذين كان لهم خضور علمي بوادي ريغ الشيخ أحمد بن أعظامو، اشتغل بالتعليم والتدريس و وقدكانت له جولات في قول الشعر لكن مع الأسف لم نعثر على شيء من شعره، و من الصفات العلمية التي لزمته في حياته ، أنه مرح كثير النكت العلمية والنوادر الأدبية حتى أنه جعل النكتة النادرة لازمة من لازماته ، و وسيلة من وسائل التعليم ، ولغزارة قاموسه اللغوي وسعة حفظه للشعر العربي، إن كل كلمة غريبة في القرآن أو في السنة إلا و يستشهد على معناه في بيت من الشعر العربي القديم الذي يفسره، فتخاله أبا علي القالي في أماليه أو ابن سلاَّم في طبقاته أو أبا تمام في حماسته.

ولشدة حرصه على سلامة اللفظ، والحفاظ على نطقه، ومخارج حروفه يصحح للناس منطقهم و يصوب لغتهم خصوصا المتعلمين، فإذا تكلم أمامه شخص متعلم بكلمة محرفة استوقفه، وصحح له النطق بها وراجعه وأعطاه الأوجه المشتركة في معانيها وهذه من الأمور شاهدتها بنفسي وأنا في طور الطلب.

فمن تلك المواقف، إنني كنت أسير مع أحد الزملاء المعلمين الذين يدعون معرفة واسعة باللغة ، و يتفاصحون أمام المتعلمين، فرأى الشيخ أحمد بن أعظامو جالسا على كرسي أمام إحدى المتاجر بجامعة، وحوله جمع من الناس _ ولم أكن أعرفه _ فقال لي الزميل ها هو الشيخ أحمد جالسا، تعال نسلم عليه فتقدمنا للسلام عليه فقال الزميل: السلام عليك يا " سِيدِي" بكسر السين والدال وإهمال الياء فرد عليه الشيخ: لست سيدك يا ابني فإذا كنت تريد توقيري فقل "سَيِّدِي" بفتح السين و تحريك الياء المكسورة المشددة لأن السيد بكسر السين وإهمال الياء تعني الذئب في لغة العرب و أنا لست ذئبا و أنشد قائلا مستشهدا :

ولي دونكم أهلون سِـيدٌ عَمَلَّسٌ وأرقـــط زهلول وعرفاء جيأل

و قد احمرَّ وجه الزميل وخجل من نفسه، ومن يومها عرفت الفرق بين سيدي وسَيدي، وإذا كان لهذا معنى فإن للشيخ باع في فقه اللغة ، كما كان شيخنا مولعا بالألغاز الفقهية والنحوية وغريب اللغة .

وكانت الموعظة _ رحمه الله _ لا تفارق شفتيه فكلما جلس في مجلس أو مر بجماعة جلوس أو حضر حفلة زفاف أو شهد جنازة أو عاد مريضا،إلا كان فيها واعظا و مرشدا وناصحا وموجها.

ومن الأعلام الشيخ إبراهيم قادري الراشدي النسب والخليلي المسكن ، أخذ على الشيخ أحمد بـــن أعظـــامو مباديء النحو و الصرف ثم جلس بسيدي خليل للشيخ أحمد البسطامي لمدة أربع سنوات فأخذ عليه شرح بـــن عقيـــل و المكودي على االألفية ، ومفتاح العلوم للسكاكي وشروحه وسيدي خليل في الفقه و شروح بعض المتون العلمية المقررة و قد أجازه للتدريس.

كتب مجموعة من المقالات في الدين والاجتماع، و كتاب في التفسيرالكوني سماه "اقتران الأرض بالسماء في القرآن الكريم "ومجموعة من الخطب الجمعية، وله بعض القصائد الشعرية في الوصف والرثاء، ضاع أكثرها ولم يبق منها إلا النزر القليل.

منها هذا المقطع من قصيدة طويلة يرثي فيها قرية سيدي راشد مسقط رأسه بعد الحالة التي آلت إليها، من هجر أهلها وموت نخيلها، وغور مياهها، متحسرا فأنشد يقول :

أبيت حليف النجم في ظلم الدجى *** أفكر في ليلى وأيام صبوتي
وعهدي مع ليلى مضى عقب الصبا *** فما كنت أخفيه على أصفى أحبتي
عمدت لتجوال في ربا دارها *** وجدت خلو الدار سبب وحشتي
تخالفت الأرواح تعفي رسومها *** وجاءت دعاص الرمل تملأ تربتي
فصارت مراع للظبا أمينة *** وفيها مراد الوحش يرقب غفلتي

منها هذه القصيدة التي قالها عن فلسطين عام 1948 منها هذه الأبيات:

بكيت بوحش سلبت سعاد وحاسبت نفسي عما يجب
إذ ليلى تنادي الشياب يا آل هاشم ويا تغلب
الوغد يدوس كرامتها ودمعها على خدها يسكب
قم واستجب للندا وعرف بليلى لمن تنسب
واحم حمى دارها ممن حقده لا ينضبب
فليس جبانا قلته الوفاة و تلقى شجاعا لها يطلب
فلسطين يا عبرة الأزمنة لك في الأساطيرمايكتب

ويقول في قصيدة أخرى ينتقد فيها تصرفات بعض الشباب منها:

يفاخر بروسو و زاكو و ينسى رسول الأمم
وراح يزاحم اختها زج الحجا و ذر غبار و تلويث فم
و هام بجيلات وماري و شبههما وقال لسلمى ما أنت لي ابنة عم.

وفي وصيته إلى أبنائه في مرض موته قال:

قد هام قلبي و همهمت شفتيو دمع عيني سال كوابل المطر
مما أعاني من تذكر صبية لا يجدون حنان الأم في البشر
و في مغيبي كيف حال أفئدتهم يلتفتون حيارى خافتي النظر
الأم تحت الثرى و الأب في مرض رهن الفراش يعاني شدة الضرر
أولادي عنكم راض مثل خط أبي ما دمت حيا أو وسدت في الحفر
الحكم لله وحده فرد صمد و كلنا يابنيَّ في رحمة القدر

نماذج من نثره:

1 – يقول في كراس من كراسته،عن علاقة السماء بالأرض وحياة الإنسان بينهما :

ً إن الإنسان جزء من طين الأرض ، في جزئه المادي،كونه متكون من المعادن التي تحويها تربة الأرض، وهو هيولي سماوي في جزئه الروحي الذي لا يعرف كنهه إلا الله خالق الإنسان، وفي هذا يشير ابن سينا إلى طبيعة النفس الإنسانية فيقول:

هبطت إليك من المحل الأرفـــــع ورقاء ذات تعــزز وتمنـــــــع
وصلت على كره إليك ،وربمـــــا كرهت فراقك وهي ذات تفجع

فالإنسان يتحرك على الأرض بجزئه المادي ، يمشي في مناكبها ويتدبر عيشه بجزئه المادي فيأكل ويشرب من رزق الله الذي أودعه في الأرض ، والسماء هي السبب المباشر في إحياء الأرض بواسطة الأمطار التي تنزل منها، وفي ذات الوقت بها يتعرف الإنسان على الوقت وتعاقب الأيام وأوقات العبادة التي تربط جزءه الروحي بالسماء، بواسطة الشمس والقمر والنجوم".

2 – وهذا جزء من رسالة بعث بها إلى الوالي العام الفرنسي سنة 1935م يعارض فيها استيلاء المعمرين على الأراضي الفلاحية عن طريق البيع من الأهالي الضعفاء، عنونها أرض سيدي راشد أرض عروشية لا سلطة للأفراد عليها

" ما هذه المحاولات؟ وماذا يراد منا أو لنا من الخير أو الشر ؟ كانت واحة سيدي راشد من أزهى وأغنى الواحات في وادي ريغ، وكان أهلها ذو حظ عظيم في جنوب عمالة قسنطينة، ولكن لقرب موقعها من قرية السفاو الأثرية انهالت عليها كتائب الرمال المتراكمة كالجبال ، وعجز أهلها عن مقاومة ذلك الطوفان الترابي، مع عدم عناية الحكومة ، بوسائل وقاية العيون من الضياع ، وإن الرمال لخطر على مياه وادي ريغ ،لملازمته منابعها تحت الأرض، فكيف بها إذا كانت من فوق ومن تحت؟

وكثيرا ما صرخنا واستنجدنا بالحكومة، وأرض سيدي راشد في نقص متتابع، حتى غاض كل مائها ويبس نخيلها ، وارتحل منها أهلها فأصبحت معدومة الحدود ، مجهولة المعالم ، مطموسة الرسوم، ورغم تكرار الشكوى للحكومة ، وما من وال على أرض تقرت، إلا ويعد أهل سيدي راشد برفع قضيتهم إلى الولاية العامة، ،وإصلاح حالهم ، ولكنها مواعيد عرقوب "

3 – وهذه فقرة من خطبة جمعة أيام الثورة ، يعظ فيها المصلين ،ويحثهم على الوحدة والتعاون، والتماسك :

" أيها الناس لا تكونوا ، كالذين تفرقوا واختلفوا ، بالمراء والجدال والخصام ، واتباع الهوى ، وطاعة شياطين البشر من أجل حطام الدنيا، فإن الدنيا زائلة والحفاظ على الشرف هو طريق الخلود، وإياكم والخروج على جماعة المسلمين ، واحذروا أن يستقل كل برأيه ،إنكم تسمعون كل جمعة عليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: " من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه" و روى البغوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللهﷺ: " من سره أن يسكن بحبوحة من الجنة فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الفذ" فواجبكم أن تتعاونوا يساند بعضكم بعضا، وقووا أنفسكم بالوحدة، فبالوحدة تتغلبوا على من سواكم، تعاونوا بالمال وبما استطعتم ولو بالكلمة والطيبة وعدم التشهير، وإلا تفعلوا فقد تسكنون بحبوحة من النار و يصدق عليكم قوله تعالى﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾

من الأعلام الذين كان لهم نشاط علمي و اشتغال بالأدب الأستاذ علي كافي، الذي تعلم في الكتاب على يد الطالب عنانو وأتم حفظ القرآن على يد الطالب بابا ، ثم جلس إلى حلقة الشيخ الطاهر العبيدي بالمسجد الكبير ، وفي عام 1947 ألتحق بجامع الزيتونة مع مجموعة من أبناء تقرت فقضى فيها سبع سنوات فتخرج بشهادة التحصيل ، وعندما عاد إلى الوطن التحق بمدرسة الفلاح التي أسسها الحشاني بن العمري وبعد الستقلا اشتغل استاذا ثم مديرا إلى أن أحيل على العطلة الرسمية.

تسمعه عام 1952 في مدينة باتنة أما جمع من الشباب بمسجد عبد القادر السائحي، ويحضور الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي والشاعر الأستاذ أحمد بن الطيب معاش ، بمناسبة إحياء ليلة القدر فلا يأبى إلا أن يخلدها بهذه الأبيات فينشد مخاطبا شباب الجزائر ليحرك فيهم الهمم وكأنه يناديهم ليوم عظيم أوشك أن يهل هلاله فيقول :

سر والمعالي فليس النصر أحـــــلاما أيا شباب العلا قم حيِّ أعــلاما
وصف لهم كيف كان الدين مزدهرا واقصص عليهم من التاريخ أياما
أيام عز رعـــــاها الله قــد ذهبت وأصبحت في عيون الناس أوهاما
شباب بـــــاتنة من للبــلاد إذا إذا تنكر الجيل للأوطان أو نامــا
فأنتَ في نظر الأوطان منقذهـــا فكن طموحا إلى العلياء مقدامــا
يا ليلة القدر و الأحكام جــائرة فهل ستمضي ليالي العمر آلامــا
يا ليلة القدر وقد أقبلتِ مغرفــة و الفجر أقبل بالآمال بســامــا
إليكم سادتي كالمسك عـــــاطرة تحية من فتى بالشعر قد هــاما

تسمعه في السجن عندما ألقي عليه القبض، وقد سلطت عليه زبانية العذاب جام غضبها، وأذاقته أنواع العذاب، يقول ويتحدى زنزانة السجن و خزنتها القائمين عليها ، متمثلا المثل الشعبي الذي يحدد معيار الرجولة في أيام المحن " الحبس للرجال" ومستمدا ثقته من قوله تعالى: ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَ الباطل كان زهوقا ﴾ فيقول:

أيها السجن ســــــلاما قد دخلناك كرامـــــا
لم نكن قط لئامـــــا أيها السجن المهـــــول
قد دخلناك بفخـــــر و صبرنا صبر حـــــــر
رفض الذل لكفـــــر وأبى العيش الذليـــــل
إيهٍ يا أرض الجزائـــــر قد تركت الخصم حائـر
كل فرد فيك ثائـــــر يطرد الجيش الدخيـــل
ضيَّقوا عنِّي الخنـــــاقا ضربوا حولي نطـــاقا
أبْعَدوا عني الرفاقـــا كي يفوزوا بدليـــــل
يا أخي سر قدمـــــا نحو تحرير الحمـــــى
أصبِغِ الأرض دمـــا ترعب الخصم الجهـــول
يا عدوا لبـــــلادي عد إلى نهج الـــــرشاد
قد دعا داعي الجهــاد فتأهبأ للـــــــرحيل
أيها الأعداء صولـــوا في زمان لا يـــــطول
سنة الكون تقـــول دولة الظلم تـــــــزول

وعندما أشتد لهيب الثورة، وعلا صوت الجزائر الحرة يدوي على لسان عيسى مسعودي، وهو يحفز الشباب للبذل والعطاء ، ويدعوهم أن يتأسوا برسول الله ﷺ في جهاده ودعوته حتى النصر ، ويشيد بكفاح الأبطال في الجبال ، ويبشر بالنصر القريب، أبى علي كافي إلا أن يعبر عن أحاسيسه ومشاعره ويخلد هذا الصوت في قصيدة طويلة نقتطف منها هذا المقطع:

رددي يا جبال صوت الرعــود وانشدي للأنام لحن الخلـــــود
و ارفعي راية الكــفاح للشعب عاش دهـــــرا مكبلا بالقيــود
يا ملاذ الأحرار في كــل وقت أنت آمـــــالنا لــعهد جــديد
فابعثي بالأسود من كل صوب وارحمي يا جـــــبال كل شهيد
لك في القلب يا جبال جســور ذكـــرتنا بثورة التـــــوحيد
حين ضاق الكفار بالدين ذرعا و تنادوا بالشــر و التهديـــد

فأقـــام الرسول في غـــار ثور و انبرى للجهاد دون حـــــــدود
فعسى الله أن يجـــود بـــــنصر لبـــــلادي و ليس ذا ببعيـــــــد

واسمعه يتألم عندما لا يسمع الجديد من شعر أستاذه محمد الأخضر السائحي، و يتأثر أن يحتجب عنه صوته الشادي، فيبعث إليه بهذه الأبيات، بعد غياب طويل ، واشتياق لدعاباته الأدبية، ومسامراته الفكرية، وقراءاته الشعرية، يرجوه فيها ألا يحرمهم من جميل شعره ، ويعود بهم إلى أيام الشباب ، ويبعث فيهم الذكريات الجميلة التي عاشوها معه فيقول:

بلبل الشعب من قـــوافيك هات قد ظمئنا لتلكـــــم الصدحات
هـــاتها روضة تـــطاول حســـنا وجه حسناء ضاحك القسمات
هـــــاتها في جـــمالها عـــــلنا نـــذكر ما كان بيننا من صلات
صد ذاك الجمال عنا فلـــــم يبق سوى لـــــوعة تثير شكاتي

وفي الوقت الذي كانت فيه المعارك الفكرية والثقافية في أوجها بين الزيتونيين والصادقيين، يتعايرون، فالصادقيون يرمون الزيتونيين بالرجعية والعقم الفكري، وينعتونهم بالتخلف عن الحضارة العصرية ، والانغلاق على أنفسهم ، والاكتفاء بترديد الماضي، بينما الزيتونيون يرمون الصادقيين بالانسلاخ عن الذات ، والتنكر لقيم أمتهم، و الذوبان في الثقافة الغربية التي أبعدتهم عن شعوبهم، فلم تفته هذه المواجهة ليسجل موقفه ورأيه في قصيدة ،قالها في حفل انتظم في شهر جوان عام 1952 بالمدرسة اليوسفية يرد فيها على الصادقيين، ومعتزا بانتمائه إلى الزيتونيين؛ فقال مفتخرا بأفضال الزيتونة على الأمة :

حمتك السماء زيتونة العز أشـــرقي وطيري بأجواء الحياة و حـــلقي
و دوسي يد الأعـــداء لا تعبئي بها شبابك أقـــدار على كل مارق
و رثت عن الأسلاف كـــل فضيلة نبات ابن حبحاب و وثبة طارق
فأنت على مر الـــزمان منـــــارة تؤمن للســـاري اجتياز المضائق
إذا ذكرو الخضراء كنت جمـــالها فأنت سام الفخـــر دون تملـــق
و لكن خفافيش الظلام تجمعـــوا يكيدون للإسلام كيـــد منافق
ويوم تعالت في المساجد صيحـــة منادية يا خيـــل عقبة سابقي
فكان لها وقع السهام على العدا ورد على كيـــد العـــدو بمنطق
فيا أيها الحفل الكـــــريم تحيـــة أخاطبكم فيها بلهجـــة واثـــق
فلا ركنوا فالذل ليس بشيمـــة لمن هو موصول بـــرب الخلائق
و كونوا حماة للثقافة و الهـــــدى وربكم للمـــــرء خير مـــوفق

ولم يرقه أن يسمع هيام يونس وهي تترنم بأغنيتها الرقيقة، التي تهز بها مشاعر الشابات و الشبان وتثير فيهم رغبة الوصال

ما باله لايرحـــــــم كأنه لا يعلـــــــم
يمر خلف بيتـــــــنا يمضي ولا يكلِّـــــم
يظن أني طفلـــــــة صغيرة لا تفهـــــم
فها أنا كزهـــــــرة فيها الشذى و البرعم

فيعارض الأبيات على نفس الوزن والقافية، و يرد عليها باسم الفتاة العربية الشريفة العفيفة فيقول:

ما باله لايفهـــــــم كأنه لا يعلـــــــــم

غدا سيلقى ربـــــه بذنبه و ينـــــــــدم
يظن أني طفلـــــــة تنحط فيها القيـــم
لكنني لا ارتضـــــي بشرفي يهـــــدم
حريتي في شرفـــــي و ليس فيما زعمـــوا
إنَّ الذي فطرنـــــي أدرى بنفعي منهـــم
يا قومُ هل من غيرة أليس فيكم مسلـــم؟
يذود عن حياضها حتى تصان الحـــرم

علي كافي متصوفا :في هذه الأبيات يحدد علي كافي مذهبه ورأيه في التصوف عموما فيقول:

من ضيع الخلق في درب المتاهات و أبعد الناس عن نهج الرسالات
سوى زنادقة أخفوا مبـــــادئهم تحت التصوف خوف الاتهامات
أهـــل الحلول نصارى في مبادئهم أم أنهم أوليـــــــاء في المقامات
و الاتحاد الذي ينأى بصـــاحبه ليصبح العبد ربا بالسخافـــات
و وحدة لوجود من يصـــورها ويجمع الكفر والإيمـــان في ذات
إني برئت من الإلحاد متجـــها لفاطر الأرض حقا والسمـــوات

علي كافي إعلاميا:

عندما فتحت إذاعة الواحات أمواجها الأثيرية عام 1956، كان الشيخ علي وقتئذ مديرا لمدرسة الفلاح العربية الحرة، فأراد أن يبلغ رسالته القومية عن طريقها ، ويصل صوت الوطنية إلى أذان المستمعين بطريقته الخاصة وبتوريته الذكية، فكون من بعض التلاميذ والتلميذات مجموعة صوتية، يقدمون نشاطات إذاعية ثقافية متنوعة ، على غرار حصة الحديقة الساحرة ، والبيت السعيد ، وأعد للمجموعة برنامجا خاصا سماه " حصة الخميس، وو ضع للجنيريك أنشودة ، لحنها الأستاذ المكي العمري هذا نصها:

حصـــــــة الخميس حـــــصة طـــــريفة
بالـــــدرس النفيس و الـــروح الخفيفـــة
أيهـــــا الصغـــار في كـــل الديـــــار
قد حفظنـــا العهود وبذلنا الجهـــــــــود
فابعثـــــوا بالردود لحـــــــصة الخميـــس

وامتدت هذه الحصة حتى بعد الاستقلال ولكن في ثوب جديد وهدف جديد، وقد لاقت هذه الحصة نجاحا باهرا ، وبإمكان القائمين الآن على الإذاعة الوطنية ، أن يبحثوا في إرشيف الإذاعة القديم، فسيجدون تسجيلات هذه الحصة .

مميزات شعره:

يتميز شعر الشيخ على كافي من ناحية الشكل بسلاسة اللفظ ووضوح المعنى، يستعمل الألفاظ البسيطة السهلة المستعملة ، حتى لا يتعب القارئ في فهم ما يقرأ ، ولا يضطره إلى استعمال القاموس لفهم الألفاظ ، كما أنه يطوِّع الوزنَ فلا يجد القارئ في شعره تعقيدا في تركيبه، ولا غموضا في جمله، أما قوافيه أكثرها ذات جرس موسيقي خفيف على الأذن تساعد الملحنين على تلحينها ،و يسهل على الأطفال والمنشدين إنشادها في المناسبات

وهذه البساطة في الألفاظ ، والمرونة في الوزن ، والوضوح في المعنى لم تمنعه من استخدام الاستعارات المكنية والتشبيهات البليغة خصوصا في قصائده الغزلية .

أما مضامينه الشعرية فتهيمن عليها الموضوعات الوطنية، والغزل الرمزي ، مع شيء قليل من الرثاء بمفهومه الحديث الذي ينصب على مدح الأفعال وذكر جليل الأعمال، ولم نعثر له عن قصيدة مدح بها مسئولا أو شخصية ذات جاه ، وإذا مدح يمدح أهل العلم من أساتذته ورجال الإصلاح .

الشيخ علي نـــــــاثرا:

للشيخ علي نثر مرسل غزير مخطوط في أوراق متفرقة، وكنانيش مدسوسة بين كتبه، تحتاج إلى جمع وترتيب وتبويب، يغلب على مضامينها الموضوعات الدينية من خطب جمعية، ودروس في التفسير والحديث ، يغلب على نثره أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم بأسلوب إنشائي، والمفارقة العجيبة التي تميز علي كافي في كتاباته ، أن أسلوبه في النثر أصعب في الفهم ،من أسلوبه في الشعر، لأن القارئ يجد في نثره التعقيد اللفظي فيقدم ويؤخر، ويستخدم الجمل الطويلة، وأعتقد أن السبب هو توظيف اللغة الشفوية المباشرة المعتمدة على الارتجال أحيانا من جهة ، ومن جهة أخرى ربما تأثر بأسلوب شراح المتون الفقهية.

علي كافي مؤلفـــــا:

لم يتفرغ الأستاذ علي كافي للتأليف، ولم يحترف الكتابة، لاشتغاله بالتربية والتعليم ، إدارتها طوال حياته العملية، وتفرغه للوعظ والإرشاد في المساجد ، وتوجيه وتعبئة الشباب بمحاضراته في الثانويات ودور الشباب، شأنه شأن أساتذته في الحركة الإصلاحية الذين وهبوا وقتهم لبناء العقول وتربية النفوس، ومع ذلك لو جُمِعَ ما قدمه من دروس، وكتبه من محاضرات ودونه من خطب في شتى الموضوعات، لوجدنا كما هائلا من النصوص تشكل تأليفا كاملا يستحق النشر والتوزيع تستفيد منه الأجيال، وتطلع من خلاله على مرحلة من مراحل تطور ثقافتنا الوطنية.

وفضلا عن ذلك فقد وجدنا في مكتبته تألفين قيمين :

مجموعة من المسودات والرسائل المختصرة في الحديث والتفسير والعقيدة وحلقات مترابطة في تاريخ مدينة تقرت.

رسالة قيمة في المواريث أصلها دروس كان يلقيها على طلبة الحلقات المسجدية المهتمين بالثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية، نأمل إن شاء الله أن نقدمها للطبع.

ومن الشخصيات الذين كان لهم جضور ثقافي بمدينة تقرت الأستاذ محمد كافي الذي أفنى عمره في التعليم حتـــى صار التعليم جزءا من حياته ، فمن نظمه وشعره التعليمي هذه القصيدة في إعراب الاستثناء يقول:

إن لم تجد نفيا فانصبه دائمـــــا كقولي غاب القوم إلا عالمـــــا
و إن وجدت نفيا قم بما يلـــي أحذف أداة الاستثناء و اسأل
هل الكـــلام وقع فيه خطـــأ أو بقيت بنيته مرتبـــــــــطة
وإن وجدت قولك صحيحـــا اتبع أداة الاستثنـــــاء مستريحا
وإن وجدت قولك قد انكســـر أنصب أو اتبع مستثنى ولا ضرر

ويقول في مطابقة العد للمعدود:

العددان واحد واثنـــــــان مع المعدود دائما متفقـــــان
ثلاث مع تسع و بينهـــــما مع المعدود دائما خالفهمـــا

وعشرة منفردة مخالفـــــة وإن أتت مع غيرها موافقــة
أما المئات والألاف والعقود شبيهة بجبهة الصمـــــــود[1]

ويقول في تمييز العدد:

ثلاث مع تسع تمييـــــزها أتى جاء مجرورا بالإضافة يـــا فتى
تسع وتسعون إلى الحادي عشر أنصبه بمفــرد فلا ضـــــرر
تمييز الألـــف و المئات إن أتـــى تجره مفــردا و مجرورا يا فتى

[1] – جهة الصمود هي الدول العربية التي وقفت موحدة واتخذت قرارا واحدة ضدة التطبيع مع إسرائيل فشـــبه النـــاظم تمييز المئة و الألف و العقود أنها دائمة واحدة على الإفراد.